٢١٤٥ / ١ / ١٤

العدد ٦٤ / صيف ٢٠٠٤

فصول

مجلة النقد الأدبى
علمية محكمة

ملف العدد
إدوارد سعيد

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم
التاريخ /

مجلة فصلية تصدر عن الهيئة المصريه العامة للكتاب

ترجمات

الاستشراق .. الآن

تمهيد لطبعة أغسطس ٢٠٠٣ إحتفالاً بمرور ربع قرن على صدور الكتاب

إدوارد سعيد ت: حازم عزمى

منذ تسعة أعوام خلت، أى فى ربيع ١٩٩٤، كتبت تذييلا لكتابى "الاستشراق" حاولت من خلاله ان أوضح للقارئ ما أردت ان أقوله في الكتاب وما ظننت أنى لم أقله مطلقاً، وتحدثت عن السجالات العديدة التي أثارها العمل منذ صدوره عام ١٩٧٨ فاستوقفنى أن عملاً يعالج تمثيلات الشرق قد تعرض هو بدوره لكم متزايد من التفسيرات الخاطئة. ولعل خير دليل على فعل السن بى أن موقفي اليوم من تلك التفسيرات قد بات أقرب إلى السخرية منه إلى الضيق ونفاد الصبر. صحيح أننى فى الفترة الأخيرة قد نكبت بموت إقبال أحمد وإبراهيم أبو لغد، وهما من كانا لي بمثابة المرشد والمعلم فى دروب الفكر والسياسة والحياة الشخصية، لكنني تقبلت الأمر فى حينه، بل وتملكني إصرار ما على المضي قدماً.

تصف سيرتي الذاتية، "خارج المكان" العالم الغريب والمتناقض الذي نشأت في رحمه وتقدم للقراء- ولى أنا من قبل- وصفاً مسهباً لحياتي بين ربوع فلسطين ومصر ولبنان وما مثله ذلك من مؤثرات مختلفة أسهمت- فيما أعتقد - فى تكوين شخصيتي . إلا أن هذا كله لم يكن سوى سرد لجوانب ذاتية وخاصة، ومن ثم لا يصل هذا السرد إلى السنوات التي شهدت التزامي السياسي، أى بعد حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل.

أما "الاستشراق" فوثيق الصلة إلى حد بعيد بالتفاعلات الصاخبة للتاريخ المعاصر، إذ تطالعنا صفحته الأولى بوصف كتب عام ١٩٧٥ للحرب الأهلية في لبنان، والتي انتهت بدورها في عام ١٩٩٠. إلا أن أعمال العنف وحمامات الدم الكريهة لم تنته حتى لحظتنا هذه. فقد فشلت عملية السلام التي بدأت في أوسلو وتفجرت الانتفاضة الثانية فى فلسطين وتجرع أهلها كل صنوف المعاناة بعد أن أعادت إسرائيل احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة. ثم هاهي ظاهرة العمليات الانتحارية قد استشرت بكل ما تخلفه وراءها من عواقب مدمرة، وهي ليست بأي حال من الأحوال بأكثر فظاعة ورمزية من أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها من حربين ضد أفغانستان والعراق. وبينما أكتب الآن هذه السطور تواصل الولايات المتحدة وبريطانيا احتلالهما الإمبريالي وغير الشرعي للعراق بما سينتج عن هذا الاحتلال من عواقب مرعبة وبغيضة. ومن المطلوب منا أن نرى ذلك كله بوصفه صفحة جديدة من "صدام الحضارات"، ذلك الصراع الأبدي والحتمي والذي لا أمل في علاجه البتة. هكذا يخبروننا؛ أما أنا فلي رأى آخر.

لكم كان بودي أن أتحدث اليوم عن تحسن ما في نظرة الأمريكيين إلى الشرق الأوسط والعرب والإسلام، لكن شيئاً من هذا لم يحدث قط. ولأسباب عديدة لا مجال لشرحها يبدو الموقف فى أوروبا أفضل كثيرا؛ أما في الولايات المتحدة فقد ازدادت المواقف المتشددة تعنتاً، وتعاظمت سطوة التعميمات المهينة والأكليشيهات المزهوة بالانتصار، وهيمنت على المجتمع سلطة فظة تعامل من يخالفونها في الرأي أو في الهوية بمزيد من الازدراء والاختزال المخل، فكان من شأن ذلك كله أن تجسد على نحو رمزي فيما شهدته مكتبات العراق ومتاحفه من أعمال نهب وتخريب عشية سقوط بغداد. ذلك أن حكامنا وغلمانهم من المثقفين يقفون دون إدراك ما للتاريخ من طبيعة تختلف بالضرورة عن سبورة الفصل: ففي اعتقادهم أن ما كتب على لوح التاريخ يمكن أن يمحى محواً وأن ندون بدلاً منه المستقبل الذي نبغيه لأنفسنا، ونمط الحياة التى نعيشها، ثم نفرضهما فرضاً على الشعوب الأدنى.

وهكذا، يبشرنا كبار المسئولين فى واشنطن، وفي أماكن أخرى، بعزمهم على "تغيير شكل الشرق الأوسط"، وكأن مجتمعات لها مثل هذا التاريخ وشعوباً بهذا التنوع يمكن أن ترج وتخلط للحصول على الشكل المناسب، شأنها شأن حبوب الفول السودانى في بطرمان زجاجي. إلا أن هذا بالضبط ما يحدث عادة عند التعامل مع "الشرق"، وأقصد به هنا هذه التركيبة الذهنية شبه الأسطورية والتي ما برح الغرب يشكلها، المرة تلو الأخرى، منذ أن وَطئت قدما نابوليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر. وفي كل مرة يقرر الوافد الغربي ألا يلقى بالاً إلى ذلك الكم الهائل من رواسب التاريخ التي تعترض طريقه، رواسب كالتنوع المحير في الشعوب واللغات والتجارب والثقافات، فمآلها كلها إلى رمال الصحراء، شأنها شأن الكنوز المنتزعة من مكتبات بغداد ومتاحفها وقد انتهى المطاف بها حطاماً مهملاً وشذرات بلا دلالة.

ولاشك عندي في أن البشر جميعاً —رجالاً ونساءً — يتشاركون في صنع التاريخ، إلا أن الأمر في رأيي لا يسلم أيضاً ممن يفكون أجزاء ذلك التاريخ، ويعيدون كتابته حسبما يقتضى الحال، فبمثل هذه الطريقة يستحيل "شرقنا" — نحن معشر الغربيين — شرقاً خاصاً بنا، نمتلكه ونتصرف فيه كيفما يحلو لنا.

ولا يملك المرء اليوم إلا أن ينظر باحترام إلى تلك الشعوب في دفاعها عن رؤيتها الخاصة لما عليه واقعها ولما تبغيه في مستقبلها، لكن أصواتاً عديدة لدينا قد انبرت لتهاجم – في حملة منظمة وواسعة النطاق– المجتمعات العربية والمسلمة المعاصرة، متهمين إياها بالتخلف وانعدام الديموقراطية وتجاهل حقوق المرأة. ويخال المتابع لتلك الحملات، في لهجتها الواثقة، أن أفكاراً من قبيل الحداثة و"عصر التنوير" والديموقراطية لا تعدو كونها مفاهيم بسيطة يتفق الجميع على تعريفها ويمكن لمن أوتى حظاً من الذكاء أن يصل إلى اكتشافها، وكأنما هي بيض عيد الفصح المخبأ في حجرة المعيشة. والحق أن المرء يكاد أن يصعق وهو يرى أمامه ذلك الجهل المطبق الذي يبديه هؤلاء الكتاب الدعائيون المتبجحون والذين ما انفكوا يتحدثون باسم السياسة الخارجية دون أن يتمتعوا بأدنى فكرة عن الناس فى واقع الحياة، فقد رسم هؤلاء صورة للعالم العربي بوصفه أرضاً جرداء قاحلة تنتظر القوة الأمريكية كي تقيم عليها في عجالة نموذجها البديل القائم على "ديموقراطية" السوق الحرة. وهكذا، لا يحتاج الواحد من هؤلاء الغريرين إلى أدنى معرفة باللغة العربية أو الفارسية أوحتى الفرنسية كي يتحدث في يقين واطمئنان عن ذلك الشيء الذى يحتاجه العرب الآن أيما احتياج: ألا وهو الديموقراطية المرساة وفقاً لنظرية الدومينو.

إننا اليوم بلا شك إزاء كارثة من كوارث التاريخ الفكرية: فالرغبة فى دراسة الشعوب الأخرى والأزمنة القديمة – طلباً للتعايش ولتوسيع آفاق المعرفة على أسس من الفهم والتعاطف والبحث المتأني المقصود لذاته– تختلف اختلافاً جوهرياً عن السعي لامتلاك المعرفة في إطار حملة

شاملة لتأكيد الذات وطلباً للذة الهيمنة. وما الحرب التي شهدناها سوى مؤامرة إمبريالية جديدة، نسج خيوطها حفنة من المسئولين الأمريكيين غير المنتخبين واستهدفوا بها إحدى ديكتاتوريات العالم الثالث المدحورة؛ وأسباب هذه الحرب محض إيديولوجية إذ ترتبط بنزعة الهيمنة على العالم والرغبة في إحكام السيطرة الأمنية وتعويض النقص فى الموارد الطبيعية. أما من عملوا على إخفاء حقيقة تلك الأسباب وساقوا التبريرات لهذه الحرب بل وسعوا للتعجيل بها، فهم، للأسف، مستشرقون معاصرون خانوا رسالتهم كطلاب معرفة.

ذلك أن برنارد لويس و فؤاد عجمي ومن على شاكلتهم من المتخصصين فى العالم العربي والإسلامي قد حظوا بالتأثير الأكبر على البنتاجون ومجلس جورج دبليو بوش للأمن القومي، ولهم يدين صقور الإدارة الأمريكية بما يتبنونه اليوم من تصورات لا يقبلها منطق، كـ"العقل العربى" و"التدهور الذى لحق بالإسلام على مدار قرون متعاقبة"، وما إلى غير ذلك من أسباب الواقع المظلم والذي لن ينتشل العرب والمسلمين منه بالطبع سوى التدخل الحميد للقوة الأمريكية.

وها هي المكتبات الأمريكية قد باتت اليوم تعج بأطروحات بالية، ذات عناوين طنانة ومثيرة تتحدث عن العلاقة بين "الإسلام والارهاب" و"كشف حقيقة الاسلام" و"الخطر العربي" بل وايضاً "المؤامرة الإسلامية". وأصحاب تلك المؤلفات كتاب سياسيون يتحدثون بلهجة العليم المطلع إذ يرجعون فرضياتهم إلى خبراء ثقات تعمقوا فى أمر هؤلاء الشرقيين غريبي الأطوار ونفذوا إلى أدق دخائلهم. وقد ساعد هؤلاء المتعالمين فى دعوتهم للحرب الدور الحيوي الذى لعبته محطتا "سي.إن.إن." و"فوكس نيوز" التلفزيونيتان إضافة إلى عدد هائل من الإذاعات التبشيرية واليمينية وبعض صحف التابلويد بل وبعض الصحف المحترمة نسبياً، فقد انصرف جهد هؤلاء جميعاً إلى إعادة إنتاج الافتراءات والتعميمات نفسها كي تهب "أمريكا" على قلب واحد فى وجه الشيطان الأجنبى.

مؤدى القول أن هذه الحرب ما كانت لتقع لولا ذلك المفهوم المنسوج فى دأب وإتقان ومفاده أن هذه الشعوب البعيدة "هناك" ليست مثلنا "نحن" ولا تستسيغ قيمنا "نحن"، وكلها مزاعم تشكل لب العقيدة الاستشراقية. فجميع الغزاة قد ملأوا دواوينهم بمثقفين محترفين من هذا النوع، يأتمرون بأمرهم وينالون عطاياهم، يستوي في ذلك الغزاة الهولنديون لماليزيا وإندونيسيا، والبريطانيون في الهند وبلاد ما بين النهرين ومصر وإفريقيا الغربية، والفرنسيون في الهند الصينية وشمال إفريقيا. لا عجب إذن أن يلجأ مستشارو البنتاجون والبيت الأبيض إلى نفس الشعارات ونفس القوالب النمطية المهينة ونفس التبريرات المضللة سعياً منهم لشرعنة العدوان وفرض السيطرة. (وها هي الجوقة تردد في ثقة: "مثل هذه الشعوب لا تفهم فى النهاية إلا لغة القوة") وإلى هؤلاء جميعاً ينضم في العراق جيش آخر من المقاولين الخاصين والمغامرين الطامحين، إليهم توكل كل الأمور: بدءاً من صياغة الكتب المدرسية والدستور الجديد وصولاً إلى إعادة تنظيم الحياة السياسية وكذلك صناعة النفط.

وما من إمبراطورية جديدة إلا وتصر في خطابها الرسمي على تأكيد الفرق بينها وبين ما سبقتها من إمبراطوريات وأن الظروف استثنائية وأن مهمتها تقوم على نشر الحضارة والمدنية والنظام والديموقراطية، وأنها ما لجأت إلى القوة إلا كحل أخير. والطامة الكبرى أنه يتوفر دائماً فى مثل تلك الظروف جوقة من المثقفين المستعدّين لترديد كلمات الطمأنينة وإغداق الثناء على الإمبراطوريات الرحيمة فاعلة الخير.

وهكذا، بعد مرور خمسة وعشرين عاماً على صدور"الاستشراق"، يطرح الكتاب مرة أخرى سؤالاً عما إذا كانت الإمبريالية الحديثة قد انتهت حقاً، أم إنها ما زالت قائمة منذ أن دخل نابوليون مصر قبل قرنين من الزمان. ولطالما قيل للعرب وللمسلمين إن استمراء دور الضحية

والتوقف أبدا أمام الخراب الذي خلفته الإمبراطورية، ليسا سوى ذريعة يلجأون إليها هرباً من المسئوليات التى تواجههم الآن. فالمستشرق المعاصر يخاطبهم قائلاً: "ها أنتم قدَ فشلتم وضللتم الطريق!" مثل هذه المقولات تشكل أيضاً جوهر إسهامات ف. س. نايبول فى مجال الأدب: ففي كتاباته ينهمك ضحايا الإمبراطورية فى مواصلة البكاء والعويل بينما حال بلادهم يمضى من سيئ إلى أسوأ، ويالها من نظرة سطحية وقاصرة لدور الإمبراطورية، ويالله من تحاش لواقع ما برح يتشكل على مدار عقود متعاقبة، تمكنت الإمبراطورية خلالها من أن تنفذ فى دهاء إلى أقدار البشر فى فلسطين والكونغو والجزائر والعراق وبلاد أخرى عديدة.

وبإمكاننا أن نتتبع تاريخ هذا التغلغل بداية من نابوليون بونابرت ومروراً بقيام الدراسات الشرقية واحتلال إفريقيا الشمالية، ثم المساعى المشابهة التي استهدفت فيتنام ومصر وفلسطين، واستمرت على مدار القرن العشرين برمته، وتبدت في التنافس على منابع النفط وعلى مناطق النفوذ الاستراتيجي فى الخليج والعراق وسوريا وفلسطين وأفغانستان. ثم ما برز بعد ذلك من نزعات قومية مناهضة للاستعمار، تلتها فترات قصيرة من الاستقلال في إطار التوجه التحرري، ما لبثت أن أعقبتها مرحلة الانقلابات العسكرية وحركات التمرد والحروب الأهلية والتعصب الديني والاقتتال الأحمق وأشكال الممارسات الوحشية المطلقة ضد أحدث ما تم إنتاجه من "سكان أصليين". وكل من هذه الحقب والعصور قد خرجت علينا برؤاها المشوشة للآخر فاختزلته إلى محض صور تحقيرية مغرضة ودفعت بفرضيات واهية عن ماهيته.

من أجل كل هذا، توسلت فى كتابي "الاستشراق" بأدوات النقد الإنساني، أملا منى في توسيع رقعة النضال المتاحة لنا، ولكي يحل فكر متأن وتحليل مسهب محل نوبات العداء الهوجاء التى طالما تأسرنا وتشل تفكيرنا. وقد أطلقت على ما أحاول أن أقوم به هنا اسم "النزعة الإنسانية" Humanism وهو مفهوم مازلت مصراً على استخدامه برغم كل ما يتعرض له اليوم من رفض وازدراء من قبل نقادنا الأجلاء دعاة ما بعد الحداثة.

وأول ما يتبادر إلى ذهني حين يذكر تعبير النزعة الإنسانية هو تلك الرغبة في تحطيم كافة "الأغلال التى يصنعها العقل"— على حد تعبير وليام بليك – وأن نوظف ذلك العقل على نحو تاريخى وعقلانى بغية التأمل والفهم. ذلك أن النزعة الإنسانية الحقة تقوم على الإحساس بالانتماء إلى جماعة كبرى تضم باحثين آخرين ومجتمعات وعصورًا أخرى: فما من باحث إنسانى بمعزل عما حوله، ومامن مجال إلا ويرتبط بما عداه من مجالات، وما من أمر في هذا العالم يمكن أن يقع بمفرده ودون أن تطاله المؤثرات الخارجية. لذا فواجبنا يتمثل فى توسيع دائرة النقاش: أى أن نجابه إشكال الظلم والمعاناة بأن نضعها جميعاً داخل سياق أرحب ينهل بغزارة من التاريخ والثقافة والواقع الاجتماعي الاقتصادي.

وخلال الخمسة وثلاثين عاماً الماضية أنفقت شطراً كبيراً من حياتي مدافعاً عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، لكنني فى الوقت ذاته لم أنس أبداً ما لاقاه الشعب اليهودي من معاناة، وما تعرض له فى الماضي من اضطهاد وإبادة. وليس من قبيل المصادفة أننى فى "الاستشراق" قد أثبتُّ ما بين النزعة الاستشراقية والعداء الحديث للسامية من جذور مشتركة. فكفاحنا من أجل إرساء المساواة فى فلسطين/ إسرائيل لابد وأن يركز في المقام الأول على تحقيق هدف إنساني واحد: ألا وهو الوصول إلى التعايش والكف عن قمع الآخر ونفيه. من هنا، يصبح لزاماً على كل من يملك فكراً مستقلاً أن يقدم نماذج بديلة تدحض المفاهيم السطحية الضيقة والقائمة على العداء المتبادل، تلك المفاهيم التي سادت طويلاً في الشرق الأوسط وفى غيرها من بقاع الأرض.

ولأنني أنتمى لجيل قديم فقد تهيأ لي منذ أربعين عاماً، وبوصفي باحثاً إنسانياً متخصصًا فى الأدب، أن أتلقى دروساً في الأدب المقارن، وهو مجال ترجع مفاهيمه التأسيسية إلى ألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. ولا يفوتنى هنا أن أشير إلى ماسبق ذلك التاريخ من إسهامات قدمها الفيلسوف وعالم الفيلولوجيا النابولي جيامباتيستا فيكو Giambattista Vico، والذي مهدت أفكاره لظهور مفكرين ألمان من أمثال هردر Herder وولف Wolf ، كما استعان بها جوته Goethe وهومبولت Humboldt وديلثي Dilthey ونيتشه Nietzsche وجادامر Gadamer ، وفى عهد أقرب نهل منها كبار باحثى فيلولوجيا اللغات الرومانسية في القرن العشرين، أمثال إيريش أورباخ Erich Auerbach وليو سبيتزر Leo Spitzer وإرنست روبرت كورتيوس Ernst Robert Curtius .

ويرى أبناء الجيل الحالي من الشباب أن الفيلولوجيا (فقه اللغة) ليس سوى علم قديم ومتهالك يعلوه الغبار والصدأ، وحقيقة الأمر أنه العلم الأكثر حيوية والأقدر على إنتاج طرائق تفكير جد مختلفة. ومن أروع تجليات ذلك العلم ما أبداه جوته من اهتمام بالإسلام، و بالشاعر "حافظ" على وجه الخصوص، وقد كان من أثر هذا الاهتمام أن وضع جوته مؤلفه المعنون بـ"الديوان الشرقي"، ثم استمر هذا الولع فيما كتبه فى مرحلة لاحقة عن "الأدب العالمى" Weltliteratur أى دراسة كل آداب العالم بوصفها سيمفونية متكاملة، يمكن مقاربتها نظرياً على نحو يحتفظ لكل عمل على حدة بتفرده واستقلاليته ودون أن يغيب عن أعيننا الكل المتناغم الذي تشكله تلك الأعمال في مجموعها.

ولعلها من مفارقات القدر الكبرى، إذن، أنه بينما تتصل أطراف عالمنا العولمى اليوم على بعض الأوجه التي ذكرتها هنا، فإننا في واقع الأمر قد صرنا قاب قوسين أو أدنى من نفس المعيارية ونفس التجانس اللذين سعت آراء جوته فى الأساس إلى الحيلولة دونهما. ولقد حذر إيريش أورباخ من هذا التحول في بحثه المعنون "فيلولوجيا الآداب العالمية" Philologie der Weltliteratur والذي نشر في عام ١٩٥١ في بداية حقبة ما بعد الحرب، والتي شهدت أيضاً بداية الحرب الباردة. ويحيلنا هذا البحث على نحو ما إلى كتاب أقدم لأورباخ ألا وهو "المحاكاة" Mimesis والذي نشر في برن في عام ١٩٤٦، وإن كان أورباخ قد وضعه في مرحلة سابقة أثناء الحرب حين كان لاجئاً في اسطنبول يعمل بتدريس اللغات الرومانسية، فقد سعى هذا الكتاب الفذ إلى أن يقدم شهادة على تنوع الأدب الغربي وحيوية تجلياته المختلفة بدءاً من هوميروس ووصولاً إلى فرجينيا وولف. ولكننا حين نقرأ ما كتبه أورباخ بعد ذلك فى ١٩٥١ ندرك ان "المحاكاة" كان أيضاً بمثابة مرثية لحقبة دأب الناس فيها على اللجوء للفيلولوجيا من أجل تحليل النصوص بطريقة تنبض بالحياة ورهافة الإحساس وسلامة الحدس ، حقبة كان فيها التبحر فى الاطلاع والتمكن من لغات متعددة يشكلان طريقة مثلى للفهم والدراسة ، وهى الطريقة التي نادى بها جوته ومثلت أساساً لفهمه الخاص للأدب الإسلامي.

كانت معرفة اللغات والتاريخ أمراً ضرورياً ولكنها لم تكن أبداً بالكافية، فمراكمة الوقائع والبيانات على نحو آلي لا يمكن أن تعيننا على القبض على مفاتيح أديب ما، كدانتى مثلاً. لذا سعى أورباخ إلى التعمق في مادة النص الحية والتعاطف معها على نحو ذاتى وخلاق وانطلاقاً من رؤية عصره وصاحبه (أوما يعرف فى الالمانية بـ Einfühlung). وبعبارة أخرى فإن المقاربة الفيلولوجية التي يقوم بها أورباخ فى "الأدب العالمي" (Weltliteratur)، وكما تصدى لها من سبقوه أيضاً بالتنظير والممارسة، لا تبدى العداء إزاء العصور أو الثقافات المختلفة، بل — على العكس — تقدم فكراً إنسانيا عميقاً يبدى الكثير من رحابة الصدر وكرم الضيافة، إذا جاز التشبيه. فشرط من شروط مهمة المفسر الإنساني أن تفسح في مكان ما منها دائماً، وبقوة، براحاً خاصاً

لـ"الآخر" الأجنبي. فبدون هذه المساحة تظل الأعمال وليدة الأزمنة والثقافات الأخرى، أعمالا غريبة علينا وبعيدة كل البعد عنا. من هنا، يصبح الانفتاح الخلاق على الآخر الركن الأهم والأخطر في مهمة ذلك المفسر الإنساني.

فى ألمانيا دب الضعف فى هذا التوجه ثم ما لبث أن قضى نحبه تماماً مع تصاعد النزعة الاشتراكية القومية. ويشير أورباخ في حزن وأسى إلى أنه بعد الحرب سادت النزعة المعيارية فى الأفكار وتجزأت المعارف فى شكل تخصصات متعددة وأضيق نطاقاً ، فكان من أثر ذلك أن تقلصت تدريجياً فرص القيام بالبحث الفيلولوجي على النحو الشامل الدؤوب الذى كان أورباخ نفسه مثالاً حياً عليه. ومما يزيد من الأسى أنه بعد وفاة أورباخ في عام ١٩٥٧ تقلص نطاق البحث الإنساني، مفهوماً وممارسة، ففقد ذلك المجال أهميته ودوره المركزي. لذا فطلابنا اليوم لا يمارسون القراءة بالمعنى الحقيقي للكلمة بل تراهم معظم الوقت فى تشتت ذاهل أمام شذرات المعرفة المبتسرة على شبكة الإنترنت أو في وسائل الإعلام الجماهيري.

ومما يزيد الأمر سوءاً أن التعليم اليوم قد بات يواجه تهديداً كبيراً من قبل العقائد القومية والدينية المتعصبة. فقد تغلغلت تلك النزعات ضيقة الأفق في وسائل الإعلام وجعلتها تركز بطريقة مناقضة للتاريخ ومهيجة للمشاعر على عمليات حربية تقع في أماكن بعيدة وتدار بواسطة أحدث الوسائل الإلكترونية فتبدو في أعين المشاهدين أشبه بالعمليات الجراحية فى دقتها ومهارتها، وهى بذلك تخفى كل ما تخلفه الحرب الحديثة من أشكال التدمير والمعاناة. فتصوير عدو مجهول فى صورة شيطان وإلصاق صفة "الإرهابي" به كي يظل الناس على غضبهم وحماسهم كلها أمور تمنح الصور الإعلامية قدراً هائلاً من الجاذبية والإثارة، وبالتالي يسهل استغلال ذلك التأثير الإعلامي فى زمن الأزمات والإحساس بعدم الأمان، أى على النحو الذى شهدناه في أعقاب اعتداءات ١١ سبتمبر.

لذا، وبصفتي أمريكيا وعربياً في الوقت نفسه، فإنني أدعو القارئ ألا يستخف بالرؤية الاختزالية للعالم التي صاغتها حفنة من المدنيين المتربعين على رأس البنتاجون، ووضعوها أساسا للتعامل مع العالمين العربي والإسلامي. ففي هذه الرؤية سنجد مفاهيم من قبيل الإرهاب والحرب الاستباقية وتغيير الأنظمة الحاكمة على نحو منفرد، وكلها أفكار تقف وراءها وتدعمها موازنة عسكرية هي الأضخم في التاريخ، ناهيك عن ترديدها ليلاً ونهاراً، وفى تسطيح مخل، داخل وسائل إعلام ما برحت تخترع لحسابها ترسانة من الخبراء المزعومين، يعملون بدورهم على تبرير توجهات الحكام وإلباسها ثوباً من الشرعية. أما أمور من قبيل التأمل ومناظرة الرأي بالرأي الآخر والتحليل العقلاني والمبادئ الأخلاقية المرتكزة على رؤية دنيوية جادة يصنع فيها البشر تاريخهم بأنفسهم، أما كل هذا فقد حلت محله أفكار مجردة تستخف بالسياق وتنكره وتنصب النموذج الأمريكي، أو الغربي عامة، أنموذجا استثنائياً ومتفرداً وتنظر بازدراء إلى ما عداه من ثقافات.

وقد يرى البعض هنا أنني أنتقل انتقالات حادة بين التفسير الإنساني والسياسة الخارجية، وأن مجتمعاً حديثاً تكنولوجياً يحظى بقوة غير مسبوقة ويمتلك في آن شبكة الإنترنت والطائرة المقاتلة "إف-١٦"، هذا المجتمع من الطبيعي ألا يقوده سوى خبراء محنكين ممن يجيدون رسم السياسات على أساس تقني بحت، أى أناس من طراز دونالد رامسفيلد وريتشارد بيرل. لكن ما يغيب عنا حين ندفع بهذا المنطق أن الحياة الإنسانية تمثل كيانا كثيفاً ومتشابكاً، يرتبط كل جزء فيه بالآخر ارتباطاً لا يستقيم معه أن نختزل تلك الحياة إلى محض صيغة واحدة، أو أن نطرح بعضها جانباً في استهانة بوصفه غير ذي صلة بالموضوع الأساسي.

ذاك، إذن، جانب من جوانب الجدل الدائر على الصعيد العالمي: أما الوضع في البلاد العربية فليس بأفضل حالا. فكما تخبرنا الصحفية رولا خلف في مقال متميز، انزلقت دول تلك

المنطقة إلى معاداة أمريكا برمتها فى موقف ينم عن جهل خطر بطبيعة المجتمع الأمريكي. ولأن حكومات هذه الدول تظل عاجزة عن التأثير في سياسات الولايات المتحدة فإنها تصرف جهدها كله لقمع شعوبها والسيطرة عليها. ومن ثم يتنامى الغضب وترتفع إلى السماء لعنات العجز ويزداد انغلاق تلك المجتمعات يوماً بعد يوم، فيؤدى الفشل والإحباط داخلها إلى وأد النظرة الدنيوية إلى التاريخ الإنساني والتطور، وهو أمر تُسهم فيه النزعة المتأسلمة باعتمادها على التلقين الأعمى ونفيها لكافة أشكال المعارف المنافسة المستمدة من أصول علمانية وحديثة. ذلك أن إغلاق باب الاجتهاد فى الإسلام شيئاً فشيئاً كان بلا شك من أنكى الكوارث الحضارية في عصرنا، فقد أدى غياب ذلك الاجتهاد إلى اختفاء الفكر النقدي أو أي إعمال مستقل للعقل فى شئون عالمنا المعاصر.

ولا يعنى هذا أن المشهد الثقافي العالمي قد انتكس هكذا ببساطة، واقعاً بين مطرقة استشراق جديد عدواني النزعة وسندان نزعة متعصبة رافضة للآخر. ففي أغسطس عام ٢٠٠٢، كشفت قمة الأمم المتحدة في جوهانسبرج، بالرغم من كل ما شابها من أوجه نقص، كشفت عن بروز حيز واسع من الاهتمامات الكونية المشتركة، فيما يشبه "تجمع انتخابى كوني" من شأنه أن يمثل قوة دفع جديدة لذلك المفهوم الذي أشبع تسطيحاً وابتذالاً: ألا وهو مفهوم العالم الواحد. والحق أن التكامل بين أجزاء هذا العالم قد صار واقعاً معيشاً لم يعد لأحد فيه أن ينكفئ على ذاته، وعلى الرغم من هذا يجب الإقرار أيضاً بأنه ليس بمقدور أحد أن يحيط علماً بكل أوجه الوحدة بالغة التعقيد التي باتت تنتظم عالمنا المعولم.

ومهما يكن من أمر هذه الوحدة، فإن تلك الصراعات الرهيبة، والتي تجمع الشعوب على شعارات مزيفة مثل "أمريكا" أو "الغرب" أو "الإسلام" وتخترع هويات جماعية لأفراد بينهم الكثير من التباين– مثل هذه الصراعات لا يمكنها أن تبقى على هذه الدرجة من القوة والتأثير. فمواجهتها واجبة علينا؛ وسلاحنا الذي مازال لدينا يتمثل في قدراتنا التفسيرية العقلانية، تلك التي بقيت لنا من نشأتنا على القيم الإنسانية. ولا أقصد بهذا الحديث أن يتملكنا الورع فننثوب في تأثر إلى قيمنا التقليدية أو إلى الكلاسيكيات، بل إن ما أدعو إليه حقاً هو أن نستمر على نحو فعال في ممارسة خطاب دنيوي علماني وعقلاني.

فالعالم الدنيوي هو ذلك الذي يصنع البشر فيه تاريخهم بأنفسهم. والفكر النقدي الذي يقوم عليه هذا العالم فكر لا ينصاع لسلطة ولا يسارع بالانضمام إلى جيوش معبأة ضد هذا العدو المعتمد أو ذاك. فبعيداً عن المفاهيم المغرضة وسابقة التجهيز كفكرة تصادم الحضارات، أمامنا اليوم عمل دءوب مشترك كي نقوى دعائم تلك الحضارات، والتي بدورها ما برحت تتداخل وتتكامل وتستعير من بعضها البعض وتحقق فيما بينها تعايشاً أعمق بكثير مما تصوره أنماط المعرفة المختزلة والزائفة. غير أن طريقة الفهم الأرحب هذه تتطلب وقتاً أطول ودراسة أكثر تأنياً ومزيداً من الشك المنهجي، يدعمهم جميعاً إيمان راسخ بدور المجتمع القائم على الفكر، وكلها مطالب جد حيوية في خضم عالم أهوج يتعجل الفعل ورد الفعل.

وبعبارة أخرى، فإن النزعة الإنسانية تقوم على إبراز دور الفرد وتأكيد الحدس الذاتي وليس على الخضوع للأفكار السائدة والمرجعيات المعتمدة. لذا فواجبنا أن نقرأ النصوص بوصفها كيانات نشأت داخل حيز التاريخ واستمرت تعيش داخل إطاره بطرق متنوعة وكثيرة، وهى الطرق التي وصفتها من قبل بالدنيوية. ولا يعنى هذا استبعاد دور القوة من تلك العملية، بل إنني، على العكس تماماً، سعيت إلى توضيح الكيفية التي أمكن بها لتلك القوة أن تتسلل وتتغلغل إلى ما بدا أنه أكثر مجالات البحث ترفعاً عن العالم.

ختاماً أؤكد، وبشكل بالغ الأهمية، أن النزعة الإنسانية سبيلنا الوحيد، بل والأخير، لمناهضة ما يشوه وجه التاريخ من مظالم وسياسات لاإنسانية. ومن دواعي التفاؤل الشديد أن نستند